من منغصات الحرب في ومضة "ثقل" لوفاء شبلي

هيفاء حمودة / سورية

أيامٌ تثقل على قلوبنا وأرواحنا، وكل منا يحمل هموماً تقصم ظهره، لا أحد بات قادراً على احتمال شكاوى روحه؛ فكيف بغيره، حتى الشكوى بالكلام تتعب الآخرين، لأن لكل منهم مشكلة، بل حتى مصيبة، وهمومهم تفوق احتمالهم وقدرتهم على البوح.

في ومضة (ثقل) للكاتبة السورية "وفاء شبلي" (ما حدا لحدا) نجد هذا البث المحبوس في الأعصاب، والضاغط على الأرواح.

(أردت أن أشكو حزني لأختي، وجدتها تشكو يُتم صغارها، عدتُ أدراجي ومعي أحزان).

أحزان الشخصية (الراوية) كبرت وجثمت على صدرها أحمال قهر لا تجد حلاً، فها هي تفكر في بث هذا الحزن لأختها؛ وهي خير مستمع لشكواها، وبث أحزانها، (أردت) وهو فعل إرادة ورغبة ملحة لفعل أي شيء يخفف هذا الذي يحدث، لكن تلك الإرادة اصطدمت بواقع مرير أكثر من واقعها حيث كانت تعيشه أختها، بعد أن فقدت زوجها بفضل قذيفة طالته من تلك الحرب الشرسة التي عانى منها الجميع.

في الجملة السردية الثانية: يرتد فعل الشكوى من الشخصية الأولى (الراوي) إلى الشخصية الثانية، فجاءت الصورة مخالفة لتوقعات الشاكي الأول الأخت. وحين أدهشتنا بالفعل (وجدتها)؛ ذاك الفعل الذي يمثل حالة واقع لا ريب فيه، حيث يعيش على كونه حال متغير، حالٌ انقلب من رغيد متكامل (بيتٌ، وأولادٌ وزوجٌ) إلى حالة فقدان ويُتم ومسؤولية، لقد انقلب حال الأسرة من لون مضيء، نافر، مشع، يزهو بالاطمئنان، إلى قيامة عبثية غيرت كل مناحي الحياة. وكان الاعتماد في السابق على الزوج والزوجة معاً، الأم والأب، وفجأة يغيب النصف الثاني؛ ليصبح عندها الحمل ثقيلاً على الأم التي (تشكو) (يتم) (صغارها)!!!!.

كلّ مفردة من هذه الحكاية تتمدد في داخلها مأساة كاملة تثقل كاهل الأم (الأرملة)، ولا ريب أن هذا الحملَ يؤثر بالكامل على حياة المرأة، كما وأنه يخلق عندها عالماً جديداً ما كانت لتفكر به من قبل. إن مسؤولية المكان وتغيير الزمان، وصغاراً هي لهم بمثابة الحاضنين: الأم والأب. فراخ صغيرة تحتاج إلى الكثير الكثير من الرعاية. هذه المأساة التي قد تقع على كثير من الأسر في هذه الفترة العصيبة، تجثم على صدر المجتمع فتحيله مجتمعاً ناقصاً خاوياً، مفككاً من رباط الأسرة. إن غياب الزوج يفرض حياة مختلفة، ويفرض معها أموراً كثيرة لعل من أولها: الأمور المادية والاقتصادية.

- عمل المرأة، (الزوجة - الأم) والسعي لسد متطلبات واحتياجات الحياة، ثم سدُّ الثغرة العاطفية والاجتماعية، والدور العظيم، والمقام الفارغ الذي تركه غياب (الزوج)، ثم تغليب عاطفة الأمومة على دور العاطفة الشخصية التي تستمد منها المرأة نسغ الحياة لتهب بالتالي عطاءها إلى الآخرين. أما حينما تكن بلا عمل؛ أو أنها لا تجد عملاً تقتات من خلاله فإنها ستعيش مع كل أفراد أسرتها عالة على أسرة الأم، وعلى المجتمع، وعلى نفسها. وهنا قد تضطر المرأة للعمل في أمور كثيرة، منها أن تعمل أعمالاً لا قدرة لها على تحملها، وهذا ما سينعكس سلباً على أبنائها، وعليها، وعلى المجتمع.

في الجملة السردية الثالثة نعود إلى الشخصية الأولى، حيث عادت بخيبات الأمل لتزيد حزناً فوق أحزانها، وذلك عندما تقمصت جزءاً من أحزان أختها، والحالة الجديدة التي تواجهها وتتواءم معها الأسرة كلها والمجتمع.

(ومعي أحزان) ظرف واسم، ظرف مكان دال على الاحتواء، إنها بمثابة النظرة إلى العالم الداخلي لنفسية الشخصية الأولى (الراوية) التي تشبعت بالألم وقلة الحيلة، وقد تحول هذا إلى أحزان أكبر وأعباء أكثر. ثم ترانا نستقرئ في لفظة (أحزان) ذاك الاسم النكرة المفتوح على معانٍ متعددة.

إن "الومضة في جزء منها يكمن في فن اللحظات الإنسانية المتسربة، تلك اللحظات الفارقة في حياة الإنسان، والتي تدلّ على تواصله مع الكون، ومع مجمل الكائنات من حوله" وذلك كما ورد في تعريف د. جمال الجزيري لها، وهي بذلك لحظة شعورية رصدتها الكاتبة وبنت عليها هذه القصة الومضة.

لقد صبغت الكاتبة السرد بومضتها بصيغة الأنا، فضمير المتكلم أضفى على النص واقعية إنسانية واصفة لحال الكثيرين في هذا العالم وخصوصاً عالمنا العربي. " إن السرد يدل على اللحظة الفارقة في حياة الكاتب، وهذه اللحظة ليست منفصلة عن اللحظات السابقة، لكنها تتصل بها اتصالاً وثيقاً".